

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
غضابنة الطاوس

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً

د. غضابنة الطاوس

قسم الفلسفة

جامعة "عبد الحميد مهري" قسنطينة 2

ghedabna.taous@yahoo.fr

ملخص

نحاول في هذه المداخلة أن نحلل خطاب التسامح والمصالحة من أجل العيش على وفاقٍ تفرضه مبادئ الحياة الاجتماعية، ومؤسسات الروح الجماعية، ومُتطلباتها وتداعياتها. وذلك لجلب المنافع ودفع المضار عن الواحد، وعن الجميع. وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا في إطارٍ من القيم الأخلاقية المبنية على التسامح والمصالحة "مع الغير" و "مع الذات" قبل ذلك. وسوف نتعرض في هذا الموضوع إلى التسامح عند قطبين من أقطاب الفكر الجزائري وهما: "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" على الرغم مما يبدو من مفارقات بين المنظومتين الفكريتين لكل واحد منهما. إلا أننا سنحاول معالجة الموضوع من زاوية أبعاد وخلفيات التسامح والمصالحة ورهانياتها المستقبلية في الفكر الجزائري في عمومته وفي تجلياتها من خلال وضمن المشروع الفكري عند هذين القطبين بشكلٍ خصوصي. ولذا جاءت هذه المداخلة لمحاولة تحليل ومعالجة إشكالية عامة هي: ما مدى حضور خطاب التسامح والمصالحة ورهانياتها المستقبلية في الفكر الجزائري مُجسداً في نموذجيه "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون"؟ وهو ما سنحاول تحليله ومعالجته من خلال وضمن بعضٍ من عناصر هذه المداخلة.

الكلمات المفتاحية: التسامح، المشروع الفكري الجزائري، عبد الحميد بن

باديس، محمد أركون.

Abstract ;

In this intervention, we try to analyze the discourse of tolerance and reconciliation to live in the harmony imposed by the principles of social life, the institutions of the collective soul, its demands and their repercussions. It is about bringing the advantages and paying the disadvantages for one and for all. This can only be done within the

framework of moral values based on tolerance and reconciliation with "others" and "with oneself" before that. In this regard, we will address the tolerance of two poles of Algerian thought, namely: "Abd al-Hamid ibn Badis" and "Mohammed Arkoun", despite the apparent paradoxes between the two intellectual systems of each of them. However, we will attempt to approach the question from the angle of the dimensions and backgrounds of tolerance and reconciliation and of its future challenges in Algerian thought in general and in its manifestations through and within the intellectual project. at these two poles in particular. Therefore, this intervention came to attempt to analyze and address a general problem, which is: - What is the extent of the presence of the discourse of tolerance and reconciliation and of its future mortgages in Algerian thought, embodied in his models " Abd al-Hamīd ibn Badis " and "Mohammed Arkoun"? This is what we will try to analyze and address through and in some of the elements of this intervention.

Keywords; Tolerance, Algerian intellectual project, Abd al-Hamīd ibn Badis, Mohamed Arkoun.

Résumée ;

Dans cette intervention, nous essayons d'analyser le discours de tolérance et de réconciliation pour vivre de l'harmonie imposée par les principes de la vie sociale, les institutions de l'âme collective, ses exigences et leurs répercussions. Il s'agit d'apporter les avantages et de payer les inconvénients pour un et pour tous. Cela ne peut se faire que dans le cadre de valeurs morales fondées sur la tolérance et la réconciliation avec «les autres» et «avec soi-même» avant cela. À cet égard, nous aborderons la tolérance de deux pôles de la pensée algérienne, à savoir: «Abd al-Hamid ibn Badis» et «Mohammed Arkoun», malgré les paradoxes apparents entre les deux systèmes intellectuels de chacun d'eux. Cependant, nous tenterons d'aborder la question sous l'angle des dimensions et des arrière-plans de la tolérance et de la réconciliation et de ses enjeux futurs dans la pensée algérienne en général et dans ses manifestations à travers et au sein du projet intellectuel à ces deux pôles en particulier. Dès lors, cette intervention est venue tenter d'analyser et d'aborder un problème général, qui est: - Quelle est l'étendue de la présence du discours de tolérance et de réconciliation et de ses futurs hypothèques dans la pensée algérienne, incarnée dans ses modèles «Abd al-Hamid ibn Badis» et "Mohammed Arkoun"? C'est ce que nous essaierons

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجا
..... غضابنة الطاوس

d'analyser et de traiter à travers et dans certains des éléments de cette intervention.

Les mots clés; Tolérance, Projet intellectuel algérien, Abd al-Hamīd ibn Badis, Mohammed Arkoun.

مقدمة :

نحاول في هذه المداخلة أن نحلل خطاب التسامح والمصالحة من أجل العيش على وفاقٍ تفرضُهُ مبادئ الحياة الاجتماعية، ومؤسّسات الروح الجماعية، ومُتطلباتها، وتداعياتها. وذلك لجلب المنافع ودفع المضار عن الواحد، وعن الجميع. وهو ما لا يُمكن أن يتحقق إلّا في إطارٍ من القيم الأخلاقية المبنية على التسامح والمصالحة "مع الغير" و"مع الذات" قبل ذلك. إنّ طرح سؤال: التسامح في الفكر الجزائري هو في غاية الأهمية للتذكير بجوهر مبادئ التسامح في الفكر الجزائري. هو ضرورة لا مناص من طرحها تفرضها أحداث العنف التي ما فتئت تظهر مرارا وتكرارا في المجتمع الجزائري على مستوى المجتمع أو على مستوى الأفراد في العبارة والسلوك . وفي جميع الحالات فإنّ وضعية "الجزائر" قد أصبحت منذ نهاية الثمانينات من الوضعيات التاريخية غير المطابقة وغير المحتملة وتعتبر تعبيرا صارخا عن اللا تسامح، عن عدم القدرة على العيش معا، وعن تحقيق الفعل الأول للاجتماع البشري ؛ أي التفاهم . فكان علينا أن نسأل تاريخنا وثقافتنا، ماضينا وحاضرنا عن كيف حدث أن الجزائري لم يعد يحتمل الجزائري، ليس الآخر الأجنبي، أنه لم يعد يحتمل شبيهه، الذي عملت الدولة الوطنية وأجهزتها، منذ الاستقلال، على إقناعه بأنه مثال للوحدة وللتضامن والاتحاد والتواصل والاستمرارية، كيف حدث بلغة "توماس هوبز" (Thomas Hobbes) أن أصبح الجزائري "ذئبا لأخيه الجزائري" ؟ أليس هذا ناتجا أولا وابتداء عن عدم التسامح في العلاقات الاجتماعية وعن غياب التسامح فكرا وممارسة، قيمة وتطبيقا في الفرد الجزائري.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

ولكن ماذا يعني التسامح في الفكر الجزائري ؟ إننا سنحاول تفكيكه في سياق تاريخي ومفهومي وبالعودة إلى نصوص "عبد الحميد بن باديس" ، و "محمد أركون" ، وفي وثيقة "ميثاق المصالحة الوطنية" كل في سياقه التاريخي. وهو ما سنحاول تحليله ومعالجته من خلال وضمن بعض من عناصر هذه المداخلة:

أولاً : في تاريخ فكرة التسامح.

ثانياً : التسامح عند "عبد الحميد بن باديس" من خلال مشروعه الفكري.

ثالثاً: التسامح عند "محمد أركون" من خلال مشروعه الفكري.

رابعاً: التسامح والمصالحة الوطنية.

أولاً : في تاريخ فكرة التسامح :

يطرح التسامح مشكلات عديدة متعلقة بمضمونه وتاريخه وعلاقاته الدينية والسياسية والفلسفية وحدوده ومجاليه وإمكانياته. ولعل مشكلة التسامح تنبع من كونه ينطوي على نقيضه، اللاتسامح. ويؤرخ للكلمة انطلاقاً أو ابتداء من عصر النهضة بحيث يعتقد أن البروتستانتية هي مصدر التسامح في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ولعل أو من استعمل كلمة التسامح هو المصلح البروتستانتي "مارتن لوثر" (Martin Luther) (1549-483) كما نجد فكرة التسامح عند الفلاسفة المحدثين خاصة "باروخ سبينوزا" (Baruch Spinoza) والتي تزامنت مع صدور رسالة "جون لوك" (John Locke) حول الموضوع نفسه .

كما عرفت فكرة التسامح تطورا بارزاً على يد فلاسفة عصلا الأنوار خاصة "إيمانويل كانط" (Immanuel Kant)، و "فرانسوا ماري أرويه" -François-Marie Arouet (Marie Arouet) المعروف باسمه المستعار : فولتير (Voltaire) كما كتب "جون استوارت ميل" (John Stuart Mill) عن مفهوم التسامح في كتابه "عن الحرية" (On Liberty).

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و"محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

فالتسامح بهذا التاريخ، ديني وسياسي وفلسفي، له مضامين ومستويات مختلفة تتمثل أساساً في حرية المعتقد والعقل والتعبير والإقرار بالاختلاف والتنوع مع ضرورة التعايش والتعاون. ولكن هل يعقل القول إن البشرية قبل هذا التاريخ، تاريخ العصر الحديث، لم تكن متسامحة ولم تعرف التسامح؟ صحيح أننا لا نجد عند اليونان كلمة مرادفة للتسامح ولكن من الواضح أن حياتهم الاجتماعية والفكرية لم تخلو من التسامح، وكذلك الحال بالنسبة للرومان والعرب المسلمين. على أن التسامح في التاريخ العربي الإسلامي الحديث يطرح أكثر من مشكلة:

- أولاً: تتعلق بالسياق التاريخي للمفهوم فكيف تكون ممكنة ترجمة كلمة (tolérance) إلى التسامح.

- وثانياً: الوضع التاريخي، فالحركة الإصلاحية الإسلامية كانت تواجه وضعاً مضاعفاً، يتمثل في إصلاح العقيدة والمجتمع والدفاع عنهما ضد الاستعمار الداخلي والخارجي.

فبأي معنى يمكن أن نتحدث عن التسامح في الوسط الإسلامي؟ وحتى تكون الإجابة موضوعية كان ينبغي تجنب المغالطات التاريخية، ومن أجل ذلك وجب على هذه الدراسة وضع خطوات منهجية أساسية منها:

- 1- معرفة كيفية استخدام مصطلح التسامح.

- 2- تحليل كل حالة خاصة في إطار - معرفة - ذات أبعاد فلسفية.

وبناء على هذا سنحاول مقارنة نصوص "عبد الحميد بن باديس" و"محمد أركون" و"ميثاق المصالحة الوطنية"، كل في سياقه التاريخي، هل هي نصوص تسمح بالحديث عن التسامح؟

ثانياً: التسامح عند "عبد الحميد بن باديس":

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجا
..... غضابنة الطاوس

من بين المفاهيم المستعملة للتسامح عند "عبد الحميد بن باديس" أنَّ التسامح يعني الفهم والتفاهم وأَنَّهُ أساس العمل الجماعي ، فينبغي لكل قوم جمعهم عمل أن يفهم بعضهم البعض كما ينبغي أن يفهموا العمل الذي هم عليه متعاونون حتى يكون العمل الجماعي مبني على منهج وبصيرة حتى يمكنهم أن يستمروا ((مجتمعين على شيء قد فهموه واتفقوا على البقاء فيه متعاونين عليه))¹.

وقد يكون العمل الجماعي بين أطراف متنازعة ، متعارضة ، فإذا حصل بينهم فهم وتفاهم من البداية فإنه لن يكون هناك اختلاف وخصومة أما إذا أخذ ((كل واحد ليجذب إلى ناحية فتقع الخصومة ما بينهم وينقطع حبل عملهم وربما انتهى بهم الأمر إلى افتراق وعدوان ، ولو أنهم في أول الأمر تفاهموا لما تخاصموا))².

المفهوم الكوني للتسامح : واستعمال ثاني يسعى من خلاله "عبد الحميد بن باديس" أن يجعل من التسامح شموليًا كونيًا. ففي جوابه على سؤاله لمن أعيش: للإسلام وللجزائر. يقول رب قائل أن هذا ضيق في النظر وتعصب في النفس وقصور في العمل، وتقصير في النفع. فليس الإسلام وحده دين البشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان³.

ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام. إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها بجميع أوطانها، واحترامها في جمع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه. ونعمل على تربيته وتربية من إلينا عليه. ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة. فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع⁴.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

وبالنظر إلى الإسلام وجد "عبد الحميد بن باديس" ومن منطلق ربانيته
القرآنية أنَّ الإسلام هو الوسيلة ، ولكن ، بأي مفهوم هو الإسلام ؟
مفهوم الإسلام عنده: يميز بين إسلاميين، إسلام وراثي وإسلام ذاتي:
- أما الإسلام الوراثي فهو إسلام: تقليد، لا نظر فيه ولا تفكير...إلا أن له جانباً
إيجابياً يتمثل في حفظ الشخصية لكن لا يستطيع القيام بالهضة.
- الإسلام الذاتي؛ هو الإسلام القائم على الفكر والنظر، وفهم القواعد مشروط
بالتعلم والعلم والمعرفة، وهذا الإسلام كما يقول هو: الدين العقلي الروحي⁵ ،
وبذلك فهو دين الإنسانية ويحب الإنسانية، وهو في الوقت ذاته إمكانية لرفض
التمائل والاندماج ، وقدرة على التمييز والاختلاف، أي أن هذا الإسلام الذاتي
عنصر للاختلاف وللحضور الإيجابي في عالم يتسم بالاضطراب والصراع
وتحكمه علاقات القوى والأغلب. إن هذا الإسلام يقوم على أصول ثلاثة هي
القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح. وبهذا الإسلام تقوم النهضة.
وبعض النتائج التي توصل إليها من خلال الدعوة إلى الإسلام الذاتي في
غاية الأهمية منها :

- فإنه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها.
- ويقرر التساوي والأخوة بين جميع تلك الأجناس ، ويُبين أنهم كانوا أجناساً
للتمييز لا للتفضيل. و أن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، ويدعو تلك
الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم والتضامن لأن الإحسان إلى واحد إحسان
إلى الجميع والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁶.
- يعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ
وَلِيَ دِينِ﴾⁷.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

- ويقرر شرائع الأمم ويُهَوِّن عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق إلى الخيرات ﴿لِكَلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾⁸.
- ويأمر بحسن التخاطب العام ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾⁹.

ولعل من أهم النتائج المترتبة على هذا الفهم الجديد للإسلام، الإسلام الذاتي القائم على العقل هو دين الإنسانية لأن خدمتها لا تكونوا إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه. فإذا عشت للإسلام، فإني أعيش للإنسانية لخيرها ولسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها.

ويُشبهه في هذا المفهوم الكوني للتسامح الوطن بقرية فيقول: مثلنا في وطننا الخاص، وكل ذي وطن خاص، إلا كمثّل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة فبخدمة كل واحد لبيته فقد خدم مجموع البيوت، ومن ضيع بيته فهو لِمَا سواها أضيع. وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية، وتسعد، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط.

فنحن إذ نخدم "الجزائر" كما يقول: فلسنا نخدمها على حساب غيرها، ولا للإضرار بسواها، ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان، القريب فالأقرب. والآن - أيها - الإخوان وقد فهمتموني وعرفتكم سمو فكرة العيش للإسلام وللجزائر.

فهذا العيش يسمو بأبعاده وخلفياته إلى الإنسانية حيث يقول: وأننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاً ونحب ووطننا ونعتبره جزءاً، ونحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها، وبالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه... إننا نأبى أن نكون آلة في يد أي كان من الأمم.

الحوار المبني على الاحترام المتبادل: وهو مفهوم يتأسس على الحوار المبني على أساس الاحترام المتبادل والتعاون في الرخاء والشدة ومن مقتضى

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

المؤاخاة الحقيقية التي تكون إلا عندما يشعر الإنسان بأنه غير مغموط الحق ولا مهضوم الجانب من صاحبه حيث يقول في كلمة صريحة: نعيش مع الفرنسيين عيش الأصدقاء المخلصين إخلاص الصديق لصديقه لا إخلاص التابع لمتبوعه وعلى هذا الأساس توضع الأمور في مواضعها ويحصل التفاهم ويزول الالتباس.

وفي مقال تحت عنوان: نظر المسلمين إلى غير المسلمين: لأجل أن يقتلع الإسلام جذور الحقد الديني والتعصب على المخالف من قلوب أتباعه ويزرع فيها التسامح عرّفهم أن اختلاف الأمم وتباينهم في نحلهم هو بمشيئة الله...ولو شاء لجعلكم أمة واحدة وعرّفهم بوجه الحكمة في هذا الاختلاف وهي أن تباين أعمالهم بتباين مشاربهم ومداركهم مما هو ضروري لنمو العمران وتقدم الإنسان وظهور حقائق الأفراد والأمم بالابتلاء والاختبار فيما أُوتيت من عقول وإرادات وقوى وأعمال.

ثم أقر- المخالفين - على ما ينتحلون ويعتبرونه: ديناً، وسماه: ديناً. وحكم بأن يترك لهم لكم دينكم. وأقر معابدهم وذكرها بما يقتضي وجوب احترامها بما يذكر فيها من - اسم الله - وأقر كتبهم لهم وسماهم: أهل الكتاب. وأقر ما يعملونه من دينهم وسماه عملاً، فقال: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. فترى كيف أبقى لهم الإسلام كل كيانهم الديني وجميع مقوماته وأحاط دينهم بسياج من الاحترام.

وببيان هذه الحقائق من سنن الله وحكمته ، وتقدير هذه الأحكام من شريعته: ربي الإسلام المسلمين على التسامح وكوّن نظرهم لغيرهم من أهل الملل ، فهم لا يرون اختلاف تلك الملل إلا شيئاً قد قضاه الله واقتضته حكمته لعمارة هذه الدار وتلك الدار ، وظهور آثار عدله وفضله وإحسانه ورحمته فسلمت قلوبهم من الحقد الديني الممقوت والتعصب المذموم ، وجرت معاملتهم لهم في أيام قوة المسلمين وأيام ضعفهم على سنن التسامح والاحترام ،

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجا
..... غضابنة الطاوس

اللهم إلاّ وقائع نادرة جدا كانت أيام ضعف المسلمين وطغيان غيرهم عليهم ،
فانتقموا انتقام المظلوم المهان لا انتقام الحقود المتعصب¹⁰.

ومن مظاهر التسامح الإسلامي عند المسلمين إنك لا تجد في صحافتهم
ومجلاتهم الفصول العريضة والمقالات الطويلة في البحث في النصرانية إلا إذا
اضطرت للدفاع عن المطاعن التي يوجهها من حين إلى آخر أعداء الإسلام.
أما الهيئات الدينية النصرانية ، فإن لكل هيئة منها مجلتها ، ويكاد لا يخلو
عدد منها من الكلام عن الإسلام وتصويره بالصور المنفرة البغيضة المثيرة
للأحقاد والحاملة على التعصب حتى أنهم قد يجعلون لأتباعهم دعوات تكرر في
أوقات مخصوصة ضد الإسلام والمسلمين ، ولأجل التحقق مما نقول ننشر في
ما يلي نص من الصلوات اليومية : يا قلب يسوع الإلهي ، أتقدم إليك بقلب مريم
الدامي بصلواتي وأعمالي وآلامي في هذا النهار وأقدم إليك صلواتي من أجل
الغاية التي أنت ساع في سبيلها كل يوم على المذبح ، وأقدم إليك صلواتي بصفة
أخص ، من أجل إنقاذ كل الكاثوليك ومن أجل محاربة الإسلام¹¹.

وحاشى الأصول الأولى لتك الملة أن تأمر بهذا فقد جاء في متى : وأما أنا
فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضكم ، وصلوا
لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ...

من دعاء القنوت ونترك من يكفرك ما تعرض الدعاء للكافرين
فالمسلم يتمسك بدينه ويتترك غير أهل دينه ودينهم. فالملل بهذه التغذية
الشريفة الطيبة لا يكون إلا نقية القلب من الحقد الديني واسع الصدر عظيم
التسامح.

ليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم بما شرعه لهم من أصل
التسامح العظيم فيزدادوا به تمسكا فيعيشوا سالمي الصدور من داء الحقد
الديني والتعصب الممقوت. وليعرف الذين يبثون تلك السموم أن أعمالهم لا

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجا
..... غضابنة الطاوس

تخفى على غيرهم. فعسى أن يقلعوا عنها ويرجعوا إلى العمل معنا على بث
التسامح بين عباد الله .

حسبنا ما مضى ، كفى ما تقاثلنا على الكلمات فكلمة ((فرق)) قد ماتت
من بيننا وما بقي إلا العمل على الوفاق والوئام لنبلغ غاية المرام. أننا بعد ذلك
نأسف ونألم على ما يُصيب الإنسان من أخيه الإنسان.

الممارسة العملية : نعتقد أن هذا التصور النظري للتسامح عند "عبد
الحميد بن باديس" والقائم على مفهوم معين للإسلام مزود بالنظرة العقلية
النقدية وقائم على الحرية والتقدم وحسن المخاطبة لا يكتمل من دون الحديث
عن الممارسات المتسامحة "لابن باديس" أو تطبيقه لهذا المفهوم سواء في
سلوكه أو في مواقفه ، ومن بعض ذلك :

كيفية تعامله مع الحضور الفرنسي في أرض الجزائر وبعض مواقفه من
الأطراف والاتجاهات الجزائرية. فمثلا يفرق "عبد الحميد بن باديس" بشكل
واضح بين فرنسا كقوة دولية وحضارية وبين الاستعمار كقوة كولونيالية : إننا
نفرق جيّداً بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة ، فنحن بقدر ما
نكره هذه ونقاومها ، نوالي تلك ونؤيدها . لأننا نتيقن كل اليقين أن بلاء العام هو
من هذه ، وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك. فلتسقط الروح
الاستعمارية ولتندحر ، ولترتفع الروح الإنسانية وتنتشر . لأنه لا يستبد بالناس
ويمتهينهم ويدوس كرامتهم إلا من لم يستكمل معنى الإنسانية ولم يكن هو في
نفسه حرا ، أما من كملت إنسانيته وخلصت حريته فإنه لا يستطيع أن يمتن
الإنسانية ولا يذل كرامتها.

وهي نظرة نقدية تميز بين الأشياء وتفصل بين المستويات وتحتكم إلى
العقل في قدرته على التمييز بين الأشياء والاستناد إلى الحجة والبرهان العقلي.
إن هذه النظرة تُبينها طريقة تعامله مع مختلف الأطراف والاتجاهات العاملة في
الجزائر وخاصة خصومه من الطرقيين والانداماجيين.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجا
..... غضابنة الطاوس

وإنه وعلى الرغم من أخذ ابن باديس بالمذهب المالكي إلا أنه اعتمد على مختلف المدارس الفقهية وساند اقتراح مصر بتوحيد التشريع الإسلامي كما تعاون مع الإباضية وشارك أعلامهم في جمعيته مثل الشيخ بيوض، يقول في هذا المعنى : ((.. كنت و ما زلت أقول في مجالسي ودروسي إن المذاهب الفقهية غير الأربعة المشهورة هي كالأربعة تتفق وتختلف عن نظر واجتهاد)).

يأتي هذا التصريح إثر الخلاف الذي وقع بين الإباضية والمالكية في غرداية في مسألة الأذان، حيث منعت الإباضية المالكية من الأذان في مسجدين من مساجدهما مستنصرين بالسلطة القائمة هناك، فتدخل عبد الحميد بن باديس وانتهت وساطته إلى ما كتبه في مقال بعنوان : "للحق والنصفة، حول منع الإباضية إخوانهم المالكية من الأذان بغرداية". يقول : ((قد ثبت عندنا أن بعض الإباضية بغرداية منذ زمان بعيد بني مسجدا وعلا له مآذنه وأحدث فيه آذانا ثانيا فاتفقت جماعة الإباضيين على منعه وهدم مئذنته. فعلمنا بهذا أن الإباضية لم يمنعوا مالكية غرداية من الأذان تعصبا عليهم لأنهم مالكية.. وإنما منعوهم لأنهم يرون الاكتفاء في البلد بآذان واحد. فنحن بهذا قد برأنا الإباضية من تعصبهم على المالكية لأنهم مالكية. ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه من حق علمهم أن يرجعوا في هذه المسألة عن رأيهم ويسمحوا لإخوانهم المالكية بالأذان.

أولا: إصلاحا لذات البين بين المسلمين.

ثانيا: حفظا للوحدة الإسلامية.

ثالثا: مجاملة لبقية إخوانهم المالكية بالقطر الذين تربطهم بهم رابطة الدين والوطن والمصلحة.

وعموما فإنه كان يرى أن الاختلاف بين مختلف مذاهب وفرق الدين الإسلامي، اختلاف في الاجتهاد لا غير. ومن هنا دعا إلى الاجتهاد وإلى إدراك قيم التقدم والتطور والرقى، ومن هنا أيضا كان موقفه الإيجابي من تعليم المرأة

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
غضابنة الطاوس

وتجربة "كمال أتاتورك" وتعامله مع مختلف الأحزاب السياسية بل وتعاونه معهم إلا أنه ولظروف سياسية معروفة ومفهومة نجد "عبد الحميد بن باديس" يتخذ مواقف حادة كموقفه من التجنس وهل تجوز الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين أم تحرم. وأقر بتحريم صلاة الجنازة عليه.

ثالثاً: التسامح عند "محمد أركون" : إنَّ مسألة التسامح على ما يرى "محمد أركون" مطروحة في الواقع المعاش بشكل ضمني ، ولكن غير منظر لها من وجهة نظر نقدية. وسبب عدم التنظير - لمسألة التسامح - أنَّ المجتمعات التي يسود فيها التراث الإسلامي قد فقدت بعد نيلها استقلالها الوطني معظم الشروط الاجتماعية - الثقافية التي تُشجع على التربية الشعبية من أجل التسامح. إذ بعد الاستقلال غادرتها وبشكل ضخم ومفاجئ كل الأديان والجاليات الأخرى غير الإسلامية.

ومن المعلوم أن التعددية الدينية هي التي تُجبر المجتمع على طرح مشكلة - التسامح - فإذا خلا منها لم تُعدْ مُلحة إلا داخل الدين الواحد نفسه. ومنه فإنَّ الموقف التبجيلي الشائع الذي لا ينفك يستشهد بالآية القائلة ((لا إكراه في الدين)) من أجل التأكيد على أنَّ الإسلام قد سبق غيره من الأديان إلى التنظير إلى - التسامح - بل وممارسته عملياً هي : مغالطة تاريخية.

ولتحاشي المغالطة التاريخية في تناول موضوع - التسامح - ينبغي : أولاً : التحقيب الزمني والابستمولوجي للتراث الإسلامي ثم تحديد مفهوم التسامح: مآله ؟ متى تبلور أول مرة ؟ ما هي مضامينه ؟ ما هي شروط تحققه أو تطبيقه في المجتمع ؟

وكذا الأمر فيما يخص - اللا تسامح - أو التعصب الديني مع بلورة هذين المصطلحين فلسفياً عن طريق مُقارعتهم بمفهوم أخلاقي ، وهو ما لا يُطاق أو لا يُحتمل (أي ما لا يُطاق وجوده في المجتمع).

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

لتنتم معالجة كل ذلك فإنه لا يكفي طرح التساؤلات ، وإنما ينبغي توسيع
التحري التاريخي والتحليل الفلسفي لكي يشمل كل الحدود الإستيمولوجية
للعقل الديني بشكل عام أينما كان.

وبقراءة نقدية للعقل الديني يتضح أن العقل البشري يخضع لجدلية
صارمة لا ترحم ؛ أي الجدلية التي تفصل بشكل قاطع بين : المسموح التفكير
فيه / والمستحيل التفكير فيه.

وبالطبع فإنّ - التسامح - / واللا تسامح ، تُشكّل جزءاً لا يتجزأ من
الأشياء المترابطة التي يستحيل التفكير فيها في الوقت الحاضر.

والدليل على ذلك ما يحصل من أعمال العنف والأحداث المأساوية.
فالعنف والتقديس والحقيقة هي الأركان الثلاثة لكل تراث مُشكّل ، ومُشكّل ،
للكينونة الجماعية ، ولا تخلو منه أمة من الأمم أو قبيلة من القبائل أو دين من
الاديان. والجماعة مستعدة للعنف من أجل الدّفاع عن حقيقتها المقدّسة.
ولهذا فإنّ - العقل الحديث - يجد فيما بعد صعوبة في تحرير الوجود البشري
كلياً من هذه العلاقة الثلاثية التي لا تنفصم (عنف ، تقديس ، حقيقة).

وإذا كان عقل التنوير في أوروبا قد تمكن من تفكيك السياجات اللاهوتية
التقليدية المتحكمة في العقل البشري ، فإنه في الناحية العربية الإسلامية لا
تزال تتحكم حتى الآن لأنّ عصر التنوير لم ينجح عندنا كما حصل في أوروبا.

وهكذا فإنّ - التسامح - ما كان بإمكانه أن ينبثق إلّا بعد تفكيك تلك
السياجات اللاهوتية التقليدية. وهكذا ينبغي إدانة كل الإسقاطات التاريخية
التبجيلية إذ في الوقت الذي يرتكبون فيه كل أنواع أعمال العنف والتعصب و
اللا تسامح ، يزعمون أنّ أديانهم قد أعلنت التسامح منذ زمن طويل بل
ومارسه تاريخياً.

وبالتالي فلا معنى للتحدث عن التسامح في تراث أديان التوحيد الثلاثة
لأنّ المفهوم الحديث للكلمة لم يكن موجوداً أصلاً ، وأي تحدث عن - التسامح

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

- في تلك العصور يعني الوقوع في المغالطة التاريخية ؛ أي إسقاط تجربة الحاضر ومفاهيمه وخبراته على عصور سابقة لم تعرفها ، وما كان بإمكانها أن تعرفها ، وليس يُضَيَّرُها أو يُقلَّل من أهميتها أنَّها لم تعرفها.

تعريف التسامح عند "أركون" : فالتسامح بالمعنى الحديث للكلمة أوسع بكثير من مفهومه بالمعنى الديني الضيق ، إنَّه يعني بالضبط ما يلي : الاعتراف للفرد - المواطن بحقه في أن يُعَبَّرَ داخل الفضاء المدني عن كل الأفكار الدينية أو السياسية أو الفلسفية التي يُريدها . ولا أحد يستطيع أن يُعاقبه على التعبير عن آراءه اللهم إلا إذا حاول فرضها عن طريق القوة والعنف على الآخرين . لا يوجد سجناء رأي في المجتمعات الحرة الديمقراطية التي تُطَبَّق - التسامح - بالمعنى الحديث للكلمة ، ولا يُسجن أحد بسبب مُعتقداته الدينية أو السياسية أو الفلسفية¹².

لي يفهم المرء الفرق بين الفضاء العقلي للحدث ، وبين الفضاء العقلي للقرون الوسطى يذكر "محمد أركون" : تفسير "فخر الدين الرَّازي" للآية : لا إكراه في الدين.

يقول : بأنَّ الله يُريد أن يُضَعَّ الإنسان على المحك أو أن يبتليه في هذه الدار الدنيا لامتحان معدنه وصلابته ، وذلك قبل إطلاق الحكم الإلهي الأخير عليه وتقرير مصيره في الجنة أم النَّار.

هذا هو معنى : لا إكراه في الدين . وليس معناها أنَّ الإنسان حرٌّ في أن يتدين أو لا يتدين ، أن يؤدي الشعائر أو لا يؤديها . فهذا تفسير إسقاطي حديث على الآية . وذلك من أجل استغلالها لأغراض تبجيلية أو سياسية كما يفعل المسلمون المعاصرون.

ويقول "فخر الدين الرَّازي" مُضيفاً بأنَّ حكم الله النهائي يعتمد أخيراً على ((التكليف)) ؛ أي على مدى تأدية المسلم البالغ للفرائض الدينية والتزامه بالأحكام الشرعية ، فإذا لم يؤديها فلا تسامح معه أبداً¹³.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
..... غضابنة الطاوس

وهكذا نجد أنفسنا وقد انتقلنا دفعة واحدة إلى داخل المَنَاح الديني الذي ساد القرون الوسطى كلّها والذي لا يزال ممتدّاً حتى الآن في قطاعات واسعة من عالم الإسلام. فالتسامح هنا مشروط ومحدود جداً ، وهناك فرق نوعي بينه ، وبين التسامح بالمعنى الحديث للكلمة. وكما وأن التسامح مرتبط بدرجة تطور المجتمع أو عدم تطوره، يُضاف إلى ذلك أن درجات التسامح وأشكاله تختلف باختلاف التقاليد الثقافية والسياسية المهيمنة في المجتمع. ويمكن التمييز بين نوعين من أشكال التسامح:

1- التسامح التكتيكي أو التبريري أو الانتهازي : ويظهر في صورتين:
- صورة سطحية ، أو بلاغية أو تزهية.
- صورة : تسامح شفقة.

2 - التسامح الإيجابي الفَعَال : أي التسامح الذي لا يتفضل به أحد على أحد أو فئة اجتماعية على فئة أخرى ، وإنما هو حق لجميع المواطنين دون استثناء بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم وأصولهم .
ويتطلب تحقيقه شرطين :

- أولاً : وجود دولة حق وقانون : تضمن الحصانة المتساوية لحرية التعبير لكل المواقع الفكرية، والعقائدية ولكل الأعمال الأدبية والفنية ، في مقابل مسؤولية...

- ثانياً : وجود مجتمع مدني متماسك ومتقدم ومشبّع إلى حد الكفاية بالثقافة الفلسفية والقانونية المتسامحة.

ولا يمكن وضع مفهوم - التسامح - على مسافة نقدية كافية أو لا يمكن وضعه على محك النقد لمعرفة أصله ونشأته ومستوياته وأهدافه إلاّ عند الأخذ بعين الاعتبار ومنذ البداية تلك التوتّرات الجدلية التي تربط بينه وبين مفهومين آخرين هما : اللا تسامح ، والذي لا يُحتمل ولا يُطاق.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
غضابنة الطاوس

اللاتسامح : كان ملازم للأنظمة اللاهوتية وكان يُعتبر فيها كقيمة إيجابية طيلة كل تلك الفترة التي سبقت ظهور عقل الحداثة ؛ أي طيلة هيمنة الأنظمة اللاهوتية المغلقة للأديان الثلاثة في العصور الوسطى. ولكن ما إن استطاع هذا العقل أن ينتصر ويفرض نفسه سياسياً ثم بشكل أخص قانونياً وتشريعياً حتى ضَمِن لكل فرد - مواطن حرية التفكير والتعبير والنشر. وهكذا انكشف الطابع السلبي والضيق جداً للتسامح الديني. هذا ما حصل في أوروبا. ولكن في العالم الإسلامي لا يزال يُعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة. لكي يتجذّر تحليل العلاقة الكائنة بين التسامح / واللاتسامح ، أكثر ، ينبغي تحليلها انطلاقاً من مفهوم أخلاقي : لِمَا لا يُطاق ، ولا يُحتمَل ؟

- فما الشيء الذي لا يُطاق ؟ وما هو الذي لا يُحتمَل ؟

تعريف ما لا يُطاق أو ما لا يُحتمَل : هو كل شيء يُضعف من التفتح الأقصى للشخص البشري أو يُعرقل هذا التفتح أو يُحرّفه عن مجراه الصحيح أو يحذفه أو يُلغيه بكل بساطة. كل ما يحول بين الإنسان وبين تحقيق حريته على هذه الأرض ضمن الاحترام المُتَعَقِّل لرسالته الإنسانية ، ولِمَنَاحه الاجتماعي والثقافي ، والبيئي ، والكوني ، فهو شيء لا يُحتمَل ولا يُطاق : كل شيء يقتل في الإنسان إنسانيته ونزعتَه نحو الإبداع ، كل شيء يخنق نسمة الحرية الخلقة في داخله فهو غير مُحتمَل ، وغير مُطاق¹⁴.

ويُضيف "أركون" إلى هذا التحديد الخاصية الأساسية التالية : إنَّ ما لا يُطاق هو ذلك الشيء الذي تنتفض الروح ضده ، وترفضه بقوة ، ولكنه على الرّغم من ذلك يستمر في فرض نفسه على أرض الواقع ، وكأنه يُريد أن يُظهر العجز الجذري للإنسان على تجاوز تناقضاته التي يتخبط فيها . فعلى الرغم من الانتفاضة ضده فإنَّه دائماً موجود ، ويزداد وجوده بالطبع في مجتمعات القمع المغلقة التي تنعدم فيها الحريات.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
غضابنة الطاوس

ومن أهم الملاحظات على هذا التحديد:

- أنه تحديد برنامجي.
- وأنه لا يحتوي على أية صيغة امتثالية أو أخلاقية (أي نزعة الوعظ الأخلاقي الممثلة). فهو ليس امتثالي ولا يحمي بأي ثمن تلك القيم أو العقائد الموروثة عن الماضي كما يفعل بعض المحافظين الذين يحنون رجعيًا إلى الوراء.
- لا يستثني في المراجعة النقدية أي تراث: الكل معني بالمراجعة النقدية.
- ويعتبر "أركون" أن: ((كل ما يُعْرِقِلُ أو يُوقِفُ الديناميكية الاستكشافية أو الخلاقة أو التحريرية للروح، فهي شيء لا يُحتمل ولا يُطاق))¹⁵. ويتساءل "أركون" هنا عن كم هو عدد الطاقات أو المواهب المبدعة التي كانت ستفتح، لو أنها لاقت تربة صالحة، وجوًا مناسبًا؟ كم هو عدد المواهب التي تُقتل في مهدها في ظل أنظمة التعصب والقمع.
- إنّ التسامح يحتاج باستمرار إلى إعادة بلورة واكتساب وتأكيد، وذلك لأنّ الظروف القمعية أو التعصبية تتجدد باستمرار، أيضًا لسبب أو لآخر، فتكرر الأنظمة الخائفة التي لا تُطاق بأكثر أشكالها المُذِلّة للروح البشرية، هو الذي يجعلنا نُركِّز على أهمية التسامح، وضرورة المحافظة عليه.
- وبالتالي يدعو "محمد أركون" إلى مواصلة الصبر والنضال والإصرار على نشر التسامح الفعّال والخروج من الإنغلاقات والعصبية الضيقة والانفتاح على كل الثقافات، والتفاعل بروح التسامح والعطاء المتبادل.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجا
..... غضابنة الطاوس

رابعاً: مشروع الميثاق من أجل السلم والمصالحة الوطنية: ليست
المصالحة الوطنية فعلاً معزولاً عن التاريخ ولا مستقلاً بذاته، بل هي نتاج
تطورات مأساوية عاشتها "الجزائر" لسنوات فلم يكن بد من عقد هذه
المصالحة التي ليست إلا تعبيراً عن ضرورة التسامح ، فجاء في :

ديباجة الميثاق: تاريخ الجزائر سلسلة من النضالات المتعاقبة التي
خاضها شعبها ذوداً عن حريته وكرامته. و الرصيد هذا، المتكون على مر الحقب
و العصور جعل من الجزائر أرضاً تُرعى فيها قيم التسامح والسلام والحوار
والحضارة. ومما جاء في الوثيقة أنّ الشعب الجزائري المتمسك بدولة الحق
والقانون و بتعهدات الجزائر الدولية يزكي ما يلي من الإجراءات الرامية إلى
تعزيز السلم وتحقيق المصالحة الوطنية

2. الإجراءات الرامية إلى استتباب السلم

3. الإجراءات الرامية إلى تعزيز المصالحة الوطنية

4. إجراءات دعم سياسة التكفل بملف المفقودين المأساوي

5. الإجراءات الرامية إلى تعزيز التماسك الوطني

وإن كانت هذه الإجراءات المتخذة من أجل المصالحة والتسامح
مشروطة بالالتزام بقرارات معيّنة.

خاتمة :

وآية ما أختتم به مداخلتني:

أنّ النماذج المأخوذة من الفكر الجزائري سواء في نمودجه الرباني
القرآني أو الفلسفي الأنواري أو الوطني السياسي تتفق في التعبير عن الرغبة
القوية لتجسيد التسامح فكراً وممارسة، عبارة وسلوكاً. لأنّه؛ وكما قال "مهاتما
غاندي" (Mahatma Gandhi): «لا أحب التسامح، ولكنني لا أجد أفضل منه
للتعبير عمّا أقصده»، فليس أمامها خيار آخر.

التسامح في المشروع الفكري الجزائري "عبد الحميد بن باديس" و "محمد أركون" نموذجاً
غضابنة الطاوس

الهوامش المستعملة:

- 1 - عبد الحميد بن باديس: آثار بن باديس، المجلد 2، ج 1: ص 233.
- 2 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 3 - المصدر نفسه، 234.
- 4 - المصدر نفسه، ص 236 - 237. و ص 278.
- 5 - المصدر نفسه ص
- 6 - سورة "الحجرات" الآية: 13.
- 7 - سورة "الكافرون"؛ الآية: 6.
- 8 - سورة "المائدة"؛ الآية: 48.
- 9 - سورة "البقرة"؛ الآية: 83.
- 10 - عبد الحميد بن باديس: آثار بن باديس، المجلد 2، ج 1: ص 490.
- 11 - المصدر نفسه، ص 492.
- 12 - محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ص 243.
- 13 - محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ص 244.
- 14 - محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ص 244.
- 15 - المصدر نفسه، ص 251.